نحو صياغة إسلامية لمناهج العلوم المختلفة

للدكتور طلعت محمد عفيفى سالم(*)

مقدمـــــة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

وأشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـد عبـده ورسوله.

وبعـــــــد :

فإن قضية التعليم إحدى قضايا الأمة الإسلامية التى على أساسـها تتحدد هويتها، وتحافظ على أصالتها.

وفي ظل الصحوة الإسلامية المعاصرة، والعـودة بالأمـة إلـى ربهـا ظـل التعليم في بلاد المسلمين بمنأى عن التغيير، وظل قابعاً في إطار التبعية للدول الغربية.

وفي سبيل التعريـف بخطـورة استمرار هذا الوضـع، وضـرورة اتخـاذ خطوة إيجابية نحو صياغة التعليم وتكييفه وفق مبـادئ الإسـلام وتعاليمـه ومـا ينبغى اتخاذه في سبيلها من إجراء كانت فكـرة هـذا البحـث، والـذى أسـميته – "نحو صياغة إسلامية لمناهج التعليم المختلفة".

وكما يتضح من العنوان فإن هذا البحث خطوة – فقط – علـى الطريـق، وآمل من الله تعالى أن يوفق المسلمين لمزيد من الخطوات لإعادة الأمـة إلـى سالف مجدها في مجال التعليم وغيره من المجالات.

(*) الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد – باكستان

١- دور التعليم في تشكيل عقلية الأمم وصناعتها:

يتفق الباحثون من المسلمين وغير المسلمين على أن للتعليم دورا فعالا في تشكيل عقلية الأمم وصناعتها.

يقول المفكر الإسلامي محمد إقبال: "أن التعليم هو الحامض" الذى يذيب شخصية الكائن الحى ثم يكونها كما يشاء، إن هذا "الحامض" هو أشد قوة وتأثيرا من أي مادة كيميائية هو الذى يستطيع أن يحول جيلا شامخا إلى كومة تراب"(١).

ويقول السيد أكبر حسين الإله آبادى: - "ستتقلب القلوب بانقلاب التعليم"(٢).

ويقول أرازموس: - "سلمنى إدارة التعليم ردحا من الدهر، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره"(٣).

ومما يزيد من أهمية التعليم في هذا الجانب - لا سيما في هذا العصر - عدة أشياء نذكر منها:

أ - أن التعليم بات يشغل معظم أوقات الإنسان وزهرة عمره، بدءا من الحضانة، وإنتهاء بالدراسة الجامعة.

---

(١) روائع إقبال - أبو الحسن الندوى - طبعة سنة ١٩٨٣م - مجلس نشريات إسلام آباد - باكستان.

(٢) الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف - أبو الحسن الندوى - طبعة أولى سنة ١٩٨٥م - دار الصحوة - القاهرة

(٣) دراسات في أصول التربية - د/ محمود قمبر وآخرون - طبعة أولى سنة ١٩٨٩م - دار الثقافة - الدوحة

ب – أن تأثير البيت والأبوين على الأبناء قد ضعف بحكم الضغوط الاقتصادية المتزايدة من جانب، واستراق أجهزة الإعلام العصرية لأوقات الناس من جانب آخر، وهذا – بدوره – شغل الأباء عن أبنائهم، وجعل المؤثر الأكبر في تشكيلهم وتربيتهم هو التعليم الذى يتلقونه.

ولأجل هذا يرى الباحثون أن إصلاح الأمة الإسلامية، وإخراجها من مأزقها رهين بإصلاح التعليم، والإنطلاق به على أسس إسلامية.

يقول العلامة أبو الحسن الندوى: – "قلب الأوضاع التعليمية رأساً على عقب وصياغتها صياغة جذرية جديدة هى قضية العالم الإسلامي الكبرى، وضرورته القصوى، ونداء الوقت وفريضة الساعة"(٤).

وفي عام ١٩٧٦م عقدت ندوة موسعة في أوربا جمعت بين أهم قادة العمل الإسلامي في الشرق والغرب، مع كثير من العلماء في مختلف التخصصات وطرحت في ساحة هذا اللقاء مختلف الآراء والتصورات، واستُعرضت حصيلة مختلف التجارب والخبرات، وجرت مناقشات مطولة في جوانب الأمر استغرقت اسبوعا كاملا، أكد المؤتمرون بإجماعهم في نهاية ندوتهم تلك بأن أزمة الأمة الكبرى في الوقت الحاضر إنما هى أزمة فكرية(٥)

(٤) الأمة الإسلامية: وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل – أبو الحسن الندوى – طبعة أولى سنة ١٩٨٩م – دار الصحوة – القاهرة

(٥) الأزمة الفكرية تشمل – فيما تشمل – نظام التعليم، ولكنها تمتد بظلالها إلى أفق أوسع فتشمل وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وغير ذلك من الوسائل، وتشمل منابع الثقافة ومصادر المعرفة في نطاقها الواسع.

وأن العلاج ينبغى أن يبدأ من هذا المنطلق، وأنه لا بد أن تعطى قضيـة الفكر ومنهجه الأولوية اللازمة كاساس لإنجاح جهود الإنقاذ والإصلاح[٦].

٢- مكانة العلم في الإسلام:

لا يوجد دين من الأديان أشاد بالعلم، ورفع من قدره، وأعلى من منزلتـه مثل الدين الإسلامي ويكفى - للتدليل على ذلك - أن يقرأ المسلم ما جـاء فـي شأن العلم وأهله في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأقوال السلف الصالح، ويقارن ذلك بما ورد في الكتب المقدسة عند غير المسلمين ليدرك الفرق الشاسع، والبون البعيد.

ففى الوقت الذى تخلو فيه أسفار العهد القديـم والجديد من آيـة عبـارات تتعلق بالعلم والفكر والنظـر ومـا اشتق منهـا أو تفرع عنهـا، نجد أن القرآن الكريم قد امتلات صفحاته بمئات - بـل ألـوف الكلمـات - التـى تحث المسلم على العلم والنظر والفكر والعقل والبرهان، ونحو ذلك.

ويكفـى - علـى سـبيل التمثيل لا الحصـر - أن نذكـر بـأن كلمـة "علـم" وردت بتصريفاتهـا المختلفـة فـي عـدد مـن آيـات القرآن الكريـم يربـوا علـى السبعمائة آية.

وإلى جانب هذه الملاحظة تبدو جوانب أخرى لها نفس القوة والمدلـول على احتفاء الإسلام بالعلم وإشادته به، ونذكر على سبيل المثال:

---

(٦) انظر (إسلامية المعرفة) - ص ١٦ - إصدار المعهد العالمى للفكر الإسلامى سنة ١٩٨٦م

أ – أن النداء الأول الذى ربط الأرض بوحى السماء كان أمراً من الله لرسوله بالقراءة ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[٧] وتلا هذا الأمر الإلهى آيات معدودات تسمو بقيمة العلم وتشيد بالقلم، ﴿خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[٨].

وفي استفتاح القرآن بهذه الآيات التى نزلت على نبى أمى في أمة أمية ما يؤكد على قيمة العلم وأهميته في هذه الأمة التى ستحمل أمانة الإسلام، وتشرف بالانتساب إليه.

ب – أقسم الله تعالى في كتابه الكريم بالكثير من مخلوقاته، تنويهاً بشأنها، ولفتا للأنظار إليها.

ولئن كانت أداة العلم قلم يكتب به، ومداد، ومادة يكتب عليها، فإن الله – تعالى أقسم بهذه الأشياء كلها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ن، والقلم وما يسطرون..﴾[٩] وفي قوله سبحانه: ﴿والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور﴾[١٠].

وفي هذا دلالة ثانية على عناية الإسلام بالعلم، والسمو بمنزلته.

وفي القرآن الكريم إشارات أخرى غير هذا، لكنى اكتفى بما ذكرت حتى لا يطول الموضوع، ويخرج عن المراد.

---

(٧) سورة العلق الآيات ١–٥

(٨) سورة العلق الآيات ١–٥

(٩) سورة القلم، الآية ١

(١٠) سورة الطور الآيات ١–٣

وفي جانب ما ورد في القرآن من إشارات حفلت السنة النبوية ببعض آخر من هذه الإشارات تؤكد على نفس المعنى وتقويه، وهو إشادة الإسلام بالعلم، والإرتقاء به، ونضرب لذلك بعض الأمثلة:

أ – من جوامع كلمه – صلى الله عليه وسلم – في هذا الصدد ما رواه أبو الدرداء عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "من سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"(١١).

والأحاديث النبوية في هذا المجال كثيرة.

ب – ومما يدل على تقدير النبى – صلى الله عليه وسلم – للعلم بأسلوب عملى ما ورد في السيرة أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يكلف الأسير من أسرى بدر أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة في مقابل أن يطلق سراحه(١٢).

وأما سلف الأمة الصالح فقد أدركوا قيمة العلم وأهميته، ونوهوا بفضله ومكانته، وليس أدل على ذلك مما فعلوه في مصنفاتهم، فقد اعتبروا الحديث عن العلم خير ما تشتمل عليه مقدمات الكتب أو فصولها الأولى، وقد جرى على هذه السنة الإمام الدرامى في سننه، والإمام أبى حامد الغزالى في إحياء علوم الدين، والإمام النووى في مقدمة كتابه (المجموع) والإمام ابن القيم في

(١١) أخرجه أبو داود وسكت عنه، والترمذى وابن ماجه واحمد، والحاكم وصححه.

(١٢) طبقات بن سعد ٢٢/١

كتابه (مفتاح دار السعادة)، وغيرهم كثير. وكذلك لم يخل كتاب من كتب السنة عن كتاب كامل يحوى مسائل العلم وآدابه.

وقد يعمدون إلى وضع مصنف كامل عن العلم وآدابه، مثلما فعل الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر في كتاب "جامع بيان العلم وفضله".

ولا أريد الاسترسال في التدليل على مكانة العلم في الإسلام، فهى أسطع من الشمس في ضحاها، ومن القمر إذا تلاها.

٣- ثمرة العلم وغايته في الإسلام:

إذا كان الإسلام قد أعلا من شأن العلم، وسما برتبته - على النحو الذى بينا - فما ذلك إلا لعظم المهمة المنوطة به، والأمانة الملقاة على عاتق حامليه.

وذلك أن الإسلام لا ينظر إلى أن طلب العلم مقصود لذاته، فلا يتعدى نفعه تحصيل المعرفة وحشو الأذهان بالعلوم، بل ينظر إليه على أنه وسيلة يستعان بها على معرفة الخالق وتوثيق الصلة به - أيا كان موضوع هذا العلم - تحقيقا للغاية التى لاجلها خلق الإنسان في هذه الحياة وهى عبادة الله تبارك وتعالى.

وفي القرآن الكريم إشارات عديدة إلى ضرورة تبنى العلم هذا المنهاج والسير عليه، وهذه بعضها:

أ - قول الله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[١٣].

(١٣) سورة العلق - الآية ١

ففى هذه الآية الكريمة لم يقل الله ﴿اقرأ﴾ فقط، بل طلب القراءة باسم الله الذى خلق، وفي ذلك إشارة إلى أن العلم ينبغى أن يعتمد ما يرضى الله، ويقرب منه.

ب – قول الله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (١٤).

والشاهد في الآية أن الله – سبحانه وتعالى – بين لنا أن وظيفة الرسول المصطفى – صلى الله عليه وسلم – لا تقتصر على التعليم المجرد، وإنما تجمع بين العلم وبين التزكية للنفوس، وتطهير القلوب.

جـ– مدح الله – سبحانه وتعالى – في كتابه الكريم صنفا من العلماء، وذم منهم صنفا آخر، وكان ذلك تبعا لانتفاعهم بالعلم في صلتهم بخالقهم من عدمه.

فمن قبيل الأول قول الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (١٥).

والشاهد أن الله تعالى مدحهم، ورفع درجاتهم حين جمعوا بين العلم والإيمان ومن هذا القبيل أيضا قول الله تعالى: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ (١٦).

---

(١٤) سورة آل عمران – الآية ١٦٤.

(١٥) سورة المجادلة، الآية ١١

(١٦) سورة الحج الآية ٥٤

والشاهد أن الله أثنى على أهل العلم الذين يوقنون بصدق ما جاءهم عن الله من وحى، وتخشع له قلوبهم، وتلين له جلودهم، وفي العطف بالفاء - الدالة على الترتيب والتعقيب - ما يدل على اللازم بين هذه الأشياء عند هولاء العلماء الصادقين دون فاصل زمنى.

ومن قبيل الثانى قول الله تعالى: ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم﴾(١٧).

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾(١٨).

والشاهد في الايتين الكريمتين أن الله تعالى ذم الكافرين رغم علمهم، لأنهم وقفوا به عند حدود الدنيا، ولم يدلهم على خالقهم، ولم يوثق صلتهم به.

ونستخلص مما سبق أن العلم النافع ينبغى أن يصبّ في إطار تعريف الناس بخالقهم، وتوثيق صلتهم به، سواء كان هذا التعليم لمواد علمية تطبيقية، أو لغوية، أو رياضية، أو إنسانية، أو غير ذلك من أنواع العلوم.

يقول الله تعالى: ﴿ . . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾(١٩).

---

(١٧) سورة النجم، الآيتان ٢٩-٣٠

(١٨) سورة الروم الآية ٧

(١٩) سورة آل عمران، الآية ٧٩

وخلال تاريخ الإسلام الزاهر وعصوره المضيئة كان العلم على هذا النحو الذى أشرنا إليه، فأنتج لنا علماء دعاة إلى إبراز عظمة هذا الدين بعلومهم ومعارفهم.

يقول الدكتور أحمد نسيم سوسة: "تمتاز الحضارة الإسلامية في كونها تخضع في معظم إنتاجها إلى التعاليم الإسلامية، فالقيام بالصناعات والأخذ بالعلوم متصلة بروح الأمة وعقيدتها، لأن العمل بذلك في نظر الإسلام فرض على الأمة، وهذا نظام يربط الإنتاج البشرى بالدين(٢٠).

وفي السعى إلى الربط بين العلم وحقائق الدين الإسلامي تتحقق عدة فوائد، نلخصها فيما يلى:

أ – تهيئة الإجواء المناسبة لتطبيق تعليم الإسلام على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، وإزاحة التناقض بين ما يعتقده المسلم وما يتعلمه.

ب – تسخير العلم لخدمة الإنسانية، والبعد به عن الزيغ والإنحراف.

جـ– إقامة وحدة فكرية بين أبناء العالم الإسلامي تُسهم في توحيد صفوف المسلمين، وجمع شتاتهم.

د – قطع الطريق على أعداء الإسلام الذين عقدوا العزم، وبيتوا النية على إفساد المسلمين بإفساد منابع العلم التى يستقون منها.

هـ– تحول العمل التعليمى – في حس الأستاذ والدارسين – الى أداة لاكتساب الثواب، وتحقيق مرضات الله في الدنيا والآخرة.

ولسنا نعنى بهذا الكلام أن تتحول العملية التعليمية إلى عملية وعظية خالية من الأسلوب العلمى المقنن، والاستفادة بما وضعه علماء التربية من

(٢٠) قالوا عن الإسلام "ص ٣٧١" د/ عماد الدين خليل – طبعة أولى سنة ١٩٩٢م – الندوة العالمية للشباب السلامي – الرياض

مبادئ لإنجاح العملية التعليمية، فهذا أمر لا غبار عليه في إطار مبادئ الإسلام وتعاليمه.

قد يقول قائل: – ألا يكفي أن يكون الدين حصة يتم من خلالها تعريف الطالب بواجبه نحو خالقه، وإعطاء لمحات عن السيرة والأخلاق وسائر الفروع الإسلامية دون حاجة إلى تخلل الدين في كل المواد؟

ويجاب عن هذا بعدة أشياء نلخصها فيما يلى:

أ – أن الدين الإسلامي يختلف في مفهومة عن الأديان الأخرى، فلئن كانت هذه الأديان تفصل بين الدين والحياة، فإن الإسلام كل متكامل ليس فيه شيء لله وشيء لغيره، بل كل شيء لله.

وفي قبول هذا الاقتراح تعميق الفكرة التى تنادى بفصل الدين عن الحياة، وهو ما يرفضه الإسلام.

ب – إن الاقتصار على تدريس الدين كمادة مثل سائر المواد، وترك بقية المواد على ما فيها من مخالفات للإسلام يضعف أي أثر خلقى أو إيمانى وينسف أي محاولة للإصلاح تنشدها مادة التربية الإسلامية والنتيجة لذلك كله أن التربية الإسلامية تخرج عن كونها تربية إلى مجرد حصص يتم فيها شرح المقرر، ويؤدى الطلاب فيها امتحانا يجيز لهم الحصول على المؤهل وفقط.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن مجموع درجات هذه المادة لا يضاف إلى المجموع، وأن حصصها تقبع في أخر اليوم الدراسى، وغالباً ما يتم استبدالها بحصص أخرى يرى الطلاب أنها أجدى وأنفع لهم، إذا لاحظنا ذلك رأينا كيف نسيئ إلى الدين ونعطل رسالته بمثل هذا الاقتراح.

ولعل من سخرية القدر بأولئك الذين يستغربون صبغ العلوم كلها بالصبغة الإسلامية، ويعملون على تهميش دور الدين – حتى في المادة

المسماة باسمه – أن تصلهم صرخات واستغاثات بأهمية تخلل الديـن وتعاليمـه في شتى المناهج، ولكنها تصدر في هذه المرة من الغربيين أنفسهم.

فقد أدرك الباحثون في الغرب أن العلوم البحتة والنظريات المجردة التى تخاطب العقل لا يمكنها تحريك الوجدان أو الضمير، بينما يخاطب الدين فطرة الإنسان، ويربط توجيهاته بسلوك عملى تطبيقى يظهر على أرض الواقع.

يقول جيمس دوس أحد علماء التربية المرموقين "أن الديـن شـيء يوثـر قبل كل شيىء في الشعور والإرادة وفي الوجدان والنزوع".

ويبين أن مادة التربية الدينية يجب أن تكون صبغة المواد التعليمية كلها:

"إن من السخرية حقا أن نضع في الجدول المدرسى مادة أسمها الدين ثم نعمض أعيننا في إطمئنان ونروح في سبات عميـق كأننـا قـد أدينـا مهمتنـا، لا ينبغى أن نقنع بأن يكون الدين مادة الى جانب المـواد الأخـرى، بـل أن يكـون روحا فياضة فـي قـوة وتوثـب، يطبـع المنهـج كلـه والحيـاة المدرسـية والعمـل المدرسى بجميـع جوانبـه ومجالاتـه، بحيـث تتهيـئ الفـرص الطبيعيـة المواتيـة لتلاميذنا حتى يشبوا وهم يقدمون خضوعهم وولائهم لله من تلقاء أنفسهم وعن طيب خاطر".

وفي أمريكا قررت لجنة السياسات التعليمية وجـوب تخلـل القيـم الخلقيـة والدينية جميع جوانب المنهج، وإدخالها في الحياة الكلية للمدرسة كجزء حيوى من أجزاء البرنامج الدراسى كله[٢١].

---

(٢١) انظر: نظرة في مناهج التربية الإسلامية بالتعليم العام، الدكتـور/ محمـود كـامل النـاقد – وهو من البحوث المقدمة في ندوة أسس التربية الإسلامية في مكـة المكرمـة ١٤٠٠هـ – ١٩٠٨م

فإذا كان الغرب قد بدأ يدرك هذه الحقيقة وينادى بها، فماذا يقول دعاة الدين الحق الذين يدعوهم دينهم إلى صبغ الحياة كلها - وليس التعليم وحده - بما فيه طاعة الله والإلتزام بمنهجه، وعدم التخلى عن هذا أبداً.

يقول الله تعالى: ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء . . . ﴾[٢٢].

٤- واقع التعليم في العالم الإسلامي المعاصر:

يجمع خبراء التربية على أن ثمت ترابطاً وثيقا بين وجهة المجتمع أياً كانت وبين نوع التعليم الذى يسود في هذا المجتمع، وهذه بعض أقوالهم:

أ - يقول العلامة الأستاذ/ أبو الحسن الندوى: "أن روح النظام التعليمى وضميره، إنما هو ظل لعقائد واضعية ونفسياتهم"[٢٣].

ب - ويقول جارد فورد في كتابه: "التربية والغاية الاجتماعية" - "إن أفضل محك لنجاح التربية وإخفاقها هو تقاليد المجتمع والقيم السائدة، التى تقوم عليها خصائصها وبقاؤها، ومما لا بد منه ألا تكون بينها وبين التربية فجوة فكرية أو عدم انسجام، فعلينا أن نلاحظ دائما أن كل محاولة للتقدم تقوم على القيم المقررة التى يؤمن بها هذا الشعب فيجب أن تقوم عليها جميع التجارب التى يقوم بها رجال التربية"[٢٤].

---

(٢٢) سورة الأنعام الآيات من (١٦٢-١٦٤)

(٢٣) الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل، (١٩) - أبو الحسن الندوى

(٢٤) المرجع السابق ص ١٩

والأقوال التى تدل على هذه الحقيقة غير هذا كثيرة.

وبناء على ما سبق يرى خبراء التربية أن المناهج التربوية تخص كل مجتمع، وتعبر عن آماله وطموحاته، وتتناغم مع أفكاره ومعتقداته، وما يصلح منها في مكان لا يصلح في غيره.

وقد وعت الشعوب الناهضة هذه الحقيقة، وأعلنت تمسكها بمنهجها التربوى النابع من شخصيتها، واستعدادها للدفاع عنه بكل ثمن حتى ولو كان الحرب.

وبهذه المناسبة أُورِدُ ما جاء في تقرير أمريكى رسمى أن التربية هى أهم المجالات التى يجب العناية بها، والتى يجب أن تسبق التصنيع والدفاع، بل والصحة.

ويعلن التقرير أنه إذا جاءت أمة تفرض على أمريكا مناهج غير أمريكية فيجب إعلان الحرب فوراً"[٢٥] ورغم وضوح هذه الحقيقة فإن المسلمين - بكل أسف - اعتمدوا المنهج الغربى العلمانى في بلادهم، فأسلوب التعليم، وسنوات الدراسة، وضروب الثقافة التى يتلقونها، وأسماء الشهادات، والحياة داخل المؤسسة التعليمية...إلخ كل هذه يمشى وفق الأسلوب والمنهج الغربى، ويبتعد كلية عن منهج الإسلام.

وحتى نكون على بينة من صحة هذا الكلام نلقى نظرة سريعة على الوضع السائد في مناهج التعليم في بلاد المسلمين:

أ - بالنسبة للغة العربية وعلومها لا يحصل الطلاب من هذه اللغة ما يعصمهم من اللحن والزلل أذا تكلموا أو كتبوا، ويشيع على الألسنة أن اللغة

(٢٥) أمة معرضة للخطر - تقرير مقدم للجنة الوطنية بأمريكا سنة ١٩٨٣م - مجلة رسالة الخليج العربى - عدد ١٢ - السنة الرابعة

العربية لغة معقدة صعبة ومدرس اللغة العربية لا ينال من الاحترام ما يناله غيره، والنتيجة لذلك كله معروفة وهى احتقار اللغة العربية، لغة القرآن، ونفور الطلاب منها ومن كل ما يمت لها بصلة.

هذا في الوقت الذى تسمو فيه اللغة الأجنبية وتعلو، وترتفع الأصوات منادية بضرورة تعلمها باعتبارها لغة الحضارة.

وفي مجال الأدب تعالت أصوات تنادى بفصل الأدب عن الدين والأخلاق، وتسربت هذه الأفكار المسمومة إلى مناهج الدراسة فغدت حربا على الأخلاق، ودعوة إلى التحلل وعدم الالتزام.

ب – بالنسبة لدراسة التاريخ تغفل الدراسات الحديثة في المدارس الحركات الإسلامية الناهضة في العالم الإسلامي وتدعى أن عصر النهضة بدأ بحملة نابليون بونابرت على مصر وفي ذلك ما فيه من إيحاء بأن الأوربيين هم رسل الحضارة، وأن الحضارة لا تقوم إلا على منهاجهم.

وتعمل الدراسات التاريخية في نفس الوقت على إحياء التاريخ القديم السابق على الإسلام – كتاريخ الفراعنة والآشوريين والكنعانيين وغيرهم – كصورة من صور الحضارات التى توهن صلة الشعوب بدينها.

وإذا لزم التعرض للتاريخ الإسلامي عرضت منه صور الصراع والتنافس على الملك، وأغفل تماما دور المسلمين في ترقى البشرى، وما قدمه المسلمون في سبيل انتشال الأمم من جاهليتها وتخلفها.

جـ– بالنسبة للمواد العلمية كالإحياء والفيزياء والطب، وغيرها تعرض مبتوتة الصلة بما يعمق في نفس الدراسين الإيمان بالله الخالق، وتستعمل ألفاظ تشجع على الإلحاد، كالطبيعة خلقت، والصدفة أوجدت، والمادة لا تفنى،

وتعمد إلى تفسير الظواهر الكونية – كالزلازل والبراكين ونحوها – بتفسيرات مادية بحتة.

وفي نفس الوقت تعرض النظريات العلمية المتعارضة مع مبادئ الإسلام كنظرية دارون في النشوء والإرتقاء – بما يوصى أنها حقيقة علمية، ودون أن يصحبها ما ينقضها من مبادئ الإسلام.

وتلمع في هذه المجالات الأسماء الغربية كنيوتن وأرشميدس وجاليليو وغيرهم، ولا يذكر أي عالم من المسلمين الأوائل فيها – أمثال الحسن بن الهيثم وابن سينا والخوارزمى وجابر بن حيان وغيرهم – وكأن المسلمين عالة في هذه العوم على غيرهم، ولم تكن لهم أية إسهامات فيها.

د – بالنسبة للعلوم الإنسانية وهى علوم النفس والفلسفة والاجتماع تبنت المدارس والجامعات نظرية فرويد التى تدعو إلى التحلل الجنسى وترجع كل شيء إلى التفسيرات الجنسية، وآراء نيتشة الداعية إلى إعفاء الإنسان من التقيد بالأخلاق والزاعمة بأن الإله من اختراع البشر ليفطوا ما لديهم من ضعف، وأنه لابد للمؤمنين بالحس الأرضى من أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة وكلام دوركايم الذى يزعم أن الأديان والأخلاق والقيم هى من صنع المجتمع... وغيرهم وغيرهم.

وكما حدث مع المواد العلمية من عرضها دون بيان أخطائها حدث ذلك أيضا مع العلوم الإنسانية، وبدلا من أن تقدم أراء هؤلاء على أنها نظريات قابلة للصواب والخطأ تعرض في صورة الحقائق العلمية التى لا يتطرق إليها الشك، ولا يعتريها الخطأ.

هـ- وأقسام الاقتصاد والسياسة والإعلام لا تقدم لطلابها شيئا يتعلق بوجهة نظر الإسلام في هذه الجوانب وأقسام القانون طغى عليها القانون الوضعى وأعطيت زاوية ضيقة للشريعة لا تتجاوز الأحوال الشخصية.

و - ومادة الدين نفسها عاجزة عن أن تؤهل طالبا لقراءة القرآن قراءة صحيحة، فضلا عن أن تصنع منه إنسانا يختلط الإسلام بلحمه ودمه.

ولم تسلم هى الأخرى من عبث الأيدى بها، ففى ظل السيطرة اليهودية على العالم، واحتوائهم لكثير من المسلمين تحذف الموضوعات التى تمسهم مساً مباشرا في القرآن أو في السيرة حفاظاً على مشاعرهم، ومنعا من إثارتهم وإغضابهم.

هذا إذا كانت التربية الإسلامية ضمن المناهج أصلا وإلا فمما يؤسف له أن السيطرة الاستعمارية قد بلغت مداها في بعض البلدان الإسلامية التى تنتسب إلى جامعة الدول العربية ولا يسمح بتدريس التربية الإسلامية في مدارسها وذلك مثل جيبوتى التى يبلغ تعدد المسلمين فيها ٩٩٪ وجزر القمر التى يبلغ المسلمون فيها قريبا من هذه النسبة، وذلك باعتراف أهل البلاد أنفسهم.

ح - ناهيك عن الاختلاط بين الشباب والشابات، وتخصيص معاهد أو كليات لتدريس الموسيقى والتمثل والنحت، وغير ذلك مما يتنافى مع مبادئ الإسلام وتعاليمة.

وبعد التعرّف على بعض المظاهر التى تدل على تغلغل المنهج الغربى في مناهج البلاد الإسلامية، نعود فنتعرف على الآثر الناتج عن هذا الأمر في حياتنا نحن المسلمين، والذى نلخصه فيما يلى:

أ – الجهل المطبق بتعاليم الإسلام، وإعادة تشكيل العقول المسلمة وفق مبادئ الغرب وقيمه.

وربما كان من المناسب أن أورد بعضا من أقوال الغربيين التى تؤكد على هذه الحقيقة التى استُهدفت من دعوتهم إلى إبعاد الإسلام عن مجال التعليم.

ومن هذه الأقوال:

يقول المبشر تكلى: "يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربى العلمانى لأن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلمو اللغات الأجنبية"(٢٦).

ويقول زويمر زعيم المبشرين: "ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلابد أن ننشئ لهم المدارس العلمانية، وتسهل التحاقهم بها، هذه المدارس التى تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب"(٢٧).

وأقوالهم في هذا الشأن – غير ما ذكرنا – كثيرة، ولكننا نكتفى بذلك طلبا للاختصار.

ب – فقدان المسلم الولاء لدينه وأمته. وينتج ذلك عن الثقافات المتنوعة التى يتلقها الإنسان مقطوعة الصلة بتراثه ودينه، فينشأ جاهلا بدينه، كارهاً له، مقطوع الصلة به.

أن الموطن العربى الذى تعلم في المدرسة يعرف عن روسو أكثر مما يعرف عن ابن خلدون، وعن جيبون وماكولى أكثر من الطبرى وابن الأثير،

(٢٦) التبشير والاستعمار ص ٨٨ – دكتور عمر فروخ

(٢٧) ابغارة على العالم الإسلامي ص ٨٢

وعن نابليون برنابرت اكثر من خالد بن الوليد، وعن باستير أكثر من الفخر الرازى، وعن دالتن أكثر من ابن الهيثم، وعن ماجلان أكثر من الإدريسيى، فمن أين يأتى شعوره بدينه، وولاؤه له، وإيمانه به"[٢٨].

ولأجل هذا تنشأ الأجيال المسلمة هشة طرية، ولا تتحمس لدينها، ولا تنهض لنجدته إذا لزم الأمر.

جـ - زعزعة الوحدة بين المسلمين في مظهر هام من مظاهرها وهو الفكر:

وقد أشار إلى هذا الأثر، وأبدى تلك الملاحظة أحد كبار المستشرقين الذين أولوا قضية التعليم أهمية خاصة، وهو المستشرق (هاملتون جب) حين قال: "إن أولى النتائج التى نجمت عن الغزو الفكرى أنه زعزع فكرة أن العالم الإسلامي وحدة ثقافية واحدة، وتسيطر عليه تقاليد واحدة.

حقا، لقد بقيت رابطة العطف المشترك والعقيدة المشتركة، ولكن امتزاج الأفكار المأخوذة من الغرب بدرجات متفاوتة كان قد بدأ ينزع إلى كل مملكة من الممالك الإسلامية"[٢٩].

---

(٢٨) مجلة مرآة العلوم الاجتماعية - مقال "فلسفة الجماعة وسلوك الأفراد" بتصرف يسير - العدد الخامس بالتربية العربية - يونية سنة ١٩٥٨م - ١٥٧

(٢٩) وحدة الفكر الإسلامي مقدمة للوحدة الإسلامية الكبرى ص ١٩ - أنور الجندى - ضمن سلسلة في دائرة الضوء - طبعة دار الاعتصام - القاهرة - بدون تاريخ

٥- الحكم الشرعى في تبنى سياسة الغرب التعليمية:

في الوقت الذى لا يمنع فيه الإسلام من الإستفادة بتجارب الآخرين، ونقل ما يراه المسلمون صالحا لأمتهم، إلا أنه يمنع من ذلك إذا كان هذا على حساب دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم.

ومن ثم أنكر النبى – صلى الله عليه وسلم – على سيدنا عمر حين رآه يقرأ شيئا من صحائف اليهود، ورد عليه بلهجة غاضبة: "أمتهوكون أنتم؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والذى نفسى بيده لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعى"(٣٠).

هذا في الوقت الذى استفاد النبى – صلى الله عليه وسلم – فيه من أسرى بدر في تعليم أصحابه القراءة والكتابة، وحفر الخندق حول المدينة بمشورة سلمان الفارسى، ولم يكن للعرب عهد بذلك من قبل، وكذلك اقتبس المسلمون عن الفرس والروم نظم البريد والعملة وتدوين الدواوين وغير ذلك، دون أن ينكر هذا التصرف أحد من أهل العلم من السلف الصالح.

والفرق بين الموقفين واضح لا يحتاج منا إلى تعليق.

فإذا عرفنا أن الحضارة الغربية قد نشأت – في الأصل – كرد فعل لسيطرة الكنيسة ورجالها، وأن هذا الموقف دفعها الى تبنى سياسة فصل الدين عن الدولة، وتنادى مفكروها بالإلحاد والتحلل والمادية وجحود الآخرة، فماذا ينتظر من تعليم ينبعث من هذه الأرضية إلا أن يكون متأثرا بالأفكار السائدة،

---

(٣٠) أخرجه الإمام أحمد

وموصلا للاتجاهات القائمة؟ ولذا يقول المفكر الإسلامي محمد إقبال: "إن نظام التعليم الغربى مؤامرة على الدين والخق والمروءة"(٣١).

يضاف إلى هذا اعتراف الغربيين أنفسهم بأن التعليم هو أخصب ميدان لتحقيق أهدافهم الرامية إلى إفساد عقائد المسلمين وأخلاقهم، وأنهم - لذلك - سيعملون بكل طاقتهم لقطع الصلة بين الإسلام والعلم.

وقد نجحت مخططات الأعداء إلى حد كبير في بلاد الإسلام، فنشأت أجيال لا تعرف الإسلام، ولا تجب أن تتعرف عليه، كما صرح بذلك زويمر زعيم المبشرين وكان ذلك بسبب التعليم الذى يتلقونه، والذى بُني على أسس غربية وعلمانية.

وبناء على ما سبق فإن استيراد مثل هذه المناهج، وتربية النشئ المسلم عليها أمر لا يقره شرع الله، ويعد قبولها وإقرارها نوعا من الفتنة، التى وصفها الله بأنها أشد وأكبر من القتل.

فإذا أردنا أن نستفيد بما لديهم من خبرة ومعرفة بالعلوم التطبيقية والتجريبية فلا ضير، شريطة أن نعامل هذه العلوم كمواد خام، ونقوم بإعادة ترتيبها بحيث تخلو من عناصر الإلحاد والشهوة وغير ذلك، ونعيد صياغتها بما يتفق مع شريعتنا ورسالتنا، فنتصرف فيها ونتحكم، ولا ندعها تتحكم فينا وتتصرف كما هو الواقع الآن.

ونستخلص من هذا أن صياغة المناهج الحالية وفق مبادئ الإسلام أمر تقره مصلحة الأمة حفاظا على الأجيال من التمزق والضياع، وهو أيضا نداء الدين الذى لا يقرنا على باطل، ويدعونا الى استقلال شخصيتنا، والمحافظة على ذاتيتنا من الذوبان والدوران في فلك الآخرين.

---

(٣١) روائع إقبال ص ٧٧ - أبو الحسن الندوى

٦- ملامح عامة لصياغة المناهج صياغة إسلامية:

تحت هذه النقطة أضع بعض الخطوط العريضة التى يمكن أن تسهم في إعادة صياغة المناهج صياغة إسلامية، واتراك التفاصيل لأهل التخصص من خبراء التربية والتعليم وذلك في النقاط التالية:

أ - إعادة النظر في العلوم التى يدرسها الطلاب بصفة عامة، وإعادة صياغتها بما يتلاءم والمفاهيم الإسلامية الصحيحة، بحيث تصبح وسيلة تعين الطالب على الاحتفاظ بشخصيته وتعمق في نفسه معانى الإيمان والالتزام بقيم الإسلام.

ولئن كانت هذه العلوم قد تطوّعت في بلاد لتخدم الإلحاد، وفي أخرى لترسيخ العلمانية، فإن إعادة صياغتها بما يتفق مع تعاليم الإسلام - التى تدعو الى النظر والفكر والعلم - ليس صعباً ولا مستحيلاً إذا صدقت النوايا، وخلصت التوجهات.

ب - تنقية هذه المناهج من كل ما يخالف شرع الله، ويشجع على التمرد والعصيان لأوامر الله.

جـ- الاهتمام بالتربية الخلقية الإسلامية مقترنة بالتربية العقلية، ذلك أن التربية العقلية وحدها لا تنتج سوى أجيال ضعيفة هزيلة، حصيلتها من التعليم حشو الأذهان، وملء العقول بالمعلومات المجردة من أي توجه أخلاقى، فيصبح عديم الفائدة.

د - زيادة الجرعة التى يدرسها الطلاب من العلوم الشرعية والعربية بما يصلح لتأهيلهم لأن يكونوا أناسا صالحين في أنفسهم، ومصلحين لغيرهم.

هـ- توجيه مزيد من العناية بالقرآن الكريم حفظا ودراسة، وبخاصة في المراحل الأولى، فقد أثبتت التجارب أن توجيه النشىء إلى حفظ القرآن يحفظ عقائدهم، ويزكى عقولهم، ويجوذ ألسنتهم.

يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته: - "إعلم أن تعليم الوالدن للقرآن شعار الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما سبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات....إلخ"(٣٢).

و - إعادة النظر في منهج التربية الإسلامية ليكون منهجا متكاملا يعالج مختلف القضايا الفكرية والاجتماعية، ويصحح المفاهيم التى تتعارض مع الإسلام، والخروج به من دائرة الثقافة العقلية المجردة إلى واقع تطبيقى عملى، ولا يكون ذلك إلى بإعادة المكانة اللائقة للتربية الإسلامية بين سائر المناهج، وعدم التقليل من شأنها - كما هو واقع الآن - والعناية باختيار مدرسيها من أصحاب الكفاءات العلمية الجيدة، المتمتعين بسيرة حسنة تؤهلهم لتدريس هذه المادة.

ز - الاستمرار في تدريس مادة الثقافة الإسلامية في المرحلة الجامعية، مع العناية بإعدادها، واختيار موضوعاتها بما يتناسب والمستوى الفكرى لطالب الجامعة.

ح - إعادة توزيع المصحف على الطالب - كما كان معمولا به من قبل - وبجانب المصحف كتاب أو عدة كتب تكون نواة لمكتبة إسلامية، ولو أعد كتاب خاص لهذه الغاية يكون أفضل، على غرار ما يفعل باللغة العربية من

(٣٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٤ - طبعة سنة ١٩٨٣م - دار مكتبة الهلال - بيروت.

توزيع كتاب لها في أول المرحلة الثانوية يتناول قواعدها الأساسية في النحو والصرف، وما يفعل في مادة الجغرافيا من توزيع الأطلس، ليكون مفتاحا لفهم هذه المادة.

ط - إعادة المكانة اللائقة للتخصصات الإسلامية، والعمل على رفع مستوى التعليم الأزهرى بما يضارع التعليم العام ويرغب الناس في الإقبال عليه.

واختم بحثى هذا بالتأكد على أن خطوة كهذه تبقى حبيسة في نفوسنا، ورهينة في صفحات بحوثنا وكتبنا ما لم تتضافر على تحقيقها كافة الجهود، وفي مقدمتها جهود القائمين على أمر البلاد الإسلامية من الحكام والزعماء والقائمين على أمر التعليم والمسئولين عنه.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل